مجلة جامعة الملك سعود، م٩، الآداب (٢)، ص ص٥١٣ - ٥٣٦ (١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م)

وادي السرحان في عصر ماقبل الإسلام في ضوء الاكتشافات الأثرية

خليل بن إبراهيم المعيقل

أستاذ مشارك، قسم الآثار والمتاحف، كلية الآداب،

جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية

(قدم للنشر بتاريخ ١٢/ ٧/ ١٤١٦هـ؛ وقبل للنشر بتاريخ ٩/ ٢/ ١٤١٧هـ)

ملخص البحث. تعالج هذه الدراسة منطقة جغرافية مهمة كانت تمثل حلقة الربط بين وسط الجزيرة العربية وبلاد الشام، حيث أصبح وادي السرحان خلال عصور ماقبل الإسلام المختلفة المعبر المفضل لقوافل التجارة المتجهة إلى جنوب بلاد الشام. وقد تمتع الوادي في عصوره المختلفة بحركة استيطان نشطة، حيث تدلنا المخلفات الأثرية المنتشرة على طول الوادي على المراحل المختلفة لهذا الاستيطان، وهذا مكننا من وضع تسلسل تاريخي مبني على المادة الأثرية المكتشفة تبدأ بأقدم عصور ماقبل التاريخ وتستمر للوقت الحاضر.

يعد وادي السرحان أحد أهم الأودية في الجزيرة العربية، حيث يمتد من النهاية الجنوبية لمنطقة حوران، تحديداً من واحة الأزرق، باتجاه جنوب وجنوب شرقي حتى دومة الجندل بمنطقة الجوف بطول يبلغ حوالي ٣٥٠كم وبعرض يتراوح بين ٥ - ٤٠كم.[١] وادي السرحان ليس وادياً بالمعنى اللغوي الدقيق لهذه الكلمة، لكنه منخفض متسع يصل عرضه في بعض نقاطه إلى ٤٠كم، وتقع أربعة أخماس امتداد هذا الوادي في أراضي المملكة العربية السعودية ضمن حدود منطقة الجوف، بينما يمتد الجزء الشمالي من الحديثة نحو

(١) Adolf Grohman, "Wadi Sirhan," *Encyclopedia of Islam*, Vol. 4. p. 450: G.S. Thomas Paker, *Romans and Saracens: A History of the Arabian Frontier* (Winona Lake: Eisenbranus, 1986), p. 116; F.V. Winnett and W. Reed, *Ancient Records from North Arabia*, Near and Middle East Series (Toronto: University of Toronto Press, 1970), p. 56, Colbert C. Held, *Middle East Pattens, Places and Peoples* (London: Westview Press, 1989), pp. 233, 278.

الأزرق في شرق الأردن (خارطة رقم ١). الأودية الكبيرة في الجزيرة العربية مثل وادي السرحان ووادي الحمض ووادي الرمة ووادي الدواسر كانت في العصور السحيقة أنهاراً جارية، لكن تغيرات بيئيةفي الجزيرة العربية حدثت أدت إلى جفاف هذه الأنهار وتحولت إلى أودية تجرى في مواسم محدودة،[٢] وهذا ربما يفسر وجود بقايا كائنات بحرية في مجاري هذه الأودية، مثل القواقع والأصداف والكائنات البحرية المتحجرة. سجل المسح الأثري الذي قامت به الإدارة العامة للآثار والمتاحف عدداً كبيراً من مواقع العصور الحجرية في مواقع صحراوية قاحلة وعلى ضفاف صحارى الربع الخالي والنفود، وهذا يدل على

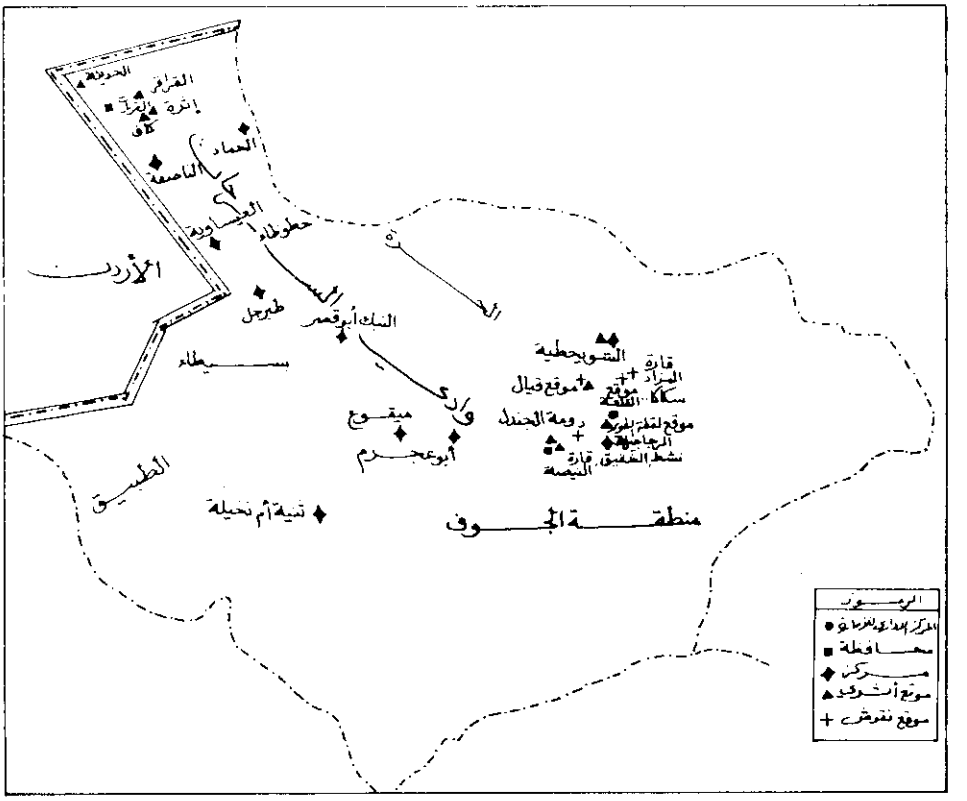

خارطة رقم ١. وادي السرحان في شمال المملكة.

(٢) جواد علي، *المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام* (بيروت: دار العلم للملايين؛ بغداد: مكتبة النهضة، ١٩٦٨م)، جـ١، ص٢٤٤.

أن بنية هذه الصحراء في تلك العصور كانت مناسبة لاستيطان إنسان العصور الحجرية.[٣] كما تم الكشف على طول امتداد وادي السرحان عن عدد كبير من المواقع الأثرية التي تعود للعصور الحجرية القديمة والوسطى، مع غياب واضح لمواقع العصر الحجري الحديث، خاصة في الجزء الأوسط والجنوبي من الوادي. وهذا ربما يشير إلى تحولات بيئية حدثت في وادي السرحان قبل العصر الحجري الحديث أدت إلى هجرة سكانه إلى مناطق أكثر ملائمة ربما إلى الشمال نحو بلاد الشام. وعثر في الجزء الجنوبي من وادي السرحان على مواقع تعود إلى العصر الحجري القديم مثل الموقع ٢٠١-٤٩ عند الطرف الشمالي لحوض سكاكا، والموقع ٢٠١-٦ عند الطرف الجنوبي الشرقي لحوض سكاكا.[٤] وتنتشر مواقع العصر الحجري الأوسط بشكل كبير، ليس فقط في وادي السرحان، بل في شمال الجزيرة العربية. وقد تركزت هذه المواقع في المنطقة الواقعة إلى الجنوب من سكاكا على حافة صحراء النفود وإلى الغرب من دومة الجندل.[٥] ولم تسجل أية مواقع أثرية مهمة في الجزء الأوسط من وادي السرحان، والسبب في ذلك ربما عائد إلى طبيعة المسح الأثري الذي تم في شمال المملكة، والذي اعتمد بشكل أساسي على توافر المعلومات السابقة عن الاستيطان والمواقع الأثرية في جنوب الوادي وشماله. من هذا المنطلق ركزت فرق المسح نشاطاتها جنوب وادي السرحان حول مدن سكاكا ودومة الجندل وفي شمال الوادي حول قريات الملح.[٦] وتشير طبيعة الوادي ووفرة المياه إلى احتمال وجود استيطان مبكر في وسط الوادي خلال العصور القديمة لو أخضع لمسح أثري شامل.

(٣) انظر تقارير المسح الشامل لأراضي المملكة العربية السعودية المنشورة في مجلة *أطلال*، ع١ (١٣٩٧هـ)، ص ص ٢١-٤٥؛ ع٢ (١٣٩٨هـ) ص ص ٧-٥٨؛ ع٣ (١٣٩٩هـ)، ص ص ٧-٣٤؛ ع٤ (١٤٠٠هـ)، ص ص ٩-٣٢، الصادرة عن الإدارة العامة للآثار والمتاحف في المملكة العربية السعودية.

(٤) بيتر بار وآخرون، «التقرير المبدئي عن المرحلة الثانية لمسح المنطقة الشمالية،» *أطلال*، ع٢ (١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م)، ص ص ٣٨, ٣٩.

(٥) Khaleel I. Al-Muaikel, *Study of the Archaeology of the Jawf Region* (Riyadh: King Fahd National Library Publications, A.H. 1414/1994), pp. 3,4.

خليل إبراهيم المعيقل، «الاستيطان الحضاري بمنطقة الجوف منذ أقدم العصور،» *الجوبة*، ع١ (١٩٩٠م)، ص ص ٢٦-٣٤.

(٦) روبرت ماك آدامز وآخرون «الاستكشاف الأثري للمملكة العربية السعودية ١٣٩٦هـ-١٩٧٦م، تقرير مبدئي عن المرحلة الأولى من برنامج المسح الشامل: المنطقة الشمالية،» *أطلال*، ع١ (١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م)، ص ص ٢١-٤٠؛ بار وآخرون *«التقرير المبدئي،»* ص ص ٢٩-٥٠.

وُجدَتْ في الجزء الشمالي لوادي السرحان أدلة استيطان تعود لعصور ماقبل التاريخ في كل منَ وادي باير، حيث عثر هنري فيلد على أدوات حجرية تعود للعصرين الحجريين القديم والأوسط.[٧] كذلك تم تسجيل عدد من المواقع حول قريات الملح بالقرب من كاف وإثره، وبوادي ميشار بالقرب من جبل ماقل، ولكن بعض هذه المواقع عبارة عن مجموعات من الدوائر الحجرية التي تعود للألف الرابع ق. م.[٨] لم يسجل فريق المسح الأثري أية مواقع تعود للعصور الحجرية القديمة حول قريات الملح وربما هذا نتج عن السرعة التي تمت بها عملية المسح، إضافة إلى الوقت القصير الذي خصص لهذا الجزء من شمال المملكة.

خلال الألفين الرابع والثالث قبل الميلاد لم يظهر نمط الاستيطان على طول وادي السرحان تطوراً كبيراً مقارنة بمواقع بلاد الشام، وبالتالي استمرت المستوطنات لم تظهر أي تغير جذري. وكما يرى مصري أن المستوطنات كانت لاتزال في خضم ثقافة العصر الحجري،[٩] ويعتقد كذلك أن مرد ذلك يعود إلى أن الأحوال المعيشية وظروف المناخ والبيئة في المنطقة كانت مناسبة بحيث لم تستدع الهجرة والتنقل المتتابع مثلما حدث في مناطق أخرى كالمنطقة الشرقية وبالتالي أدى إلى تغير نمط المعيشة واستخدام الأواني الفخارية.[١٠] وقد كشفت أعمال المسح الأثري في وادي السرحان عن مواقع عدة تحوي دوائر حجرية مختلفة إما منفصلة أو في مجموعات صغيرة. وإلى الغرب من دومة الجندل تم الكشف عن موقعين ٢٠١ ـ ٥٤، ٢٠١ ـ ٥٦، هذان الموقعان عبارة عن قرى من الدوائر الحجرية المختلفة.[١١] كذلك تم الكشف عن دوائر مشابهة بوادي ميشار عند سفح جبل ماقل شمال كاف.[١٢] كما عثر في هذا الموقع على أدوات حجرية وعلى كسر فخارية، هذه الأدوات تنتمي لنماذج العصر الحجري النحاسي بفلسطين وسيناء، ويمكن تأريخها

---

(٧) Henry Field, *North Arabian Desert Archaeological Survey, 1925 - 50* (Cambridge, Mass.: The Peabody Museum, 1960), pp. 77,78.

(٨) ماك آدامز وآخرون، «الاستكشاف الأثري،» ص ص ٣٩، ٤٠.

(٩) عبد الله حسن مصري، «ماقبل التاريخ في شرق المملكة العربية السعودية وشمالها،» في: عبدالرحمن الأنصاري وآخرين (تحرير)، *دراسات في تاريخ الجزيرة العربية*، الكتاب الثاني، *الجزيرة العربية قبل الإسلام* (الرياض: جامعة الملك سعود، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م)، ص٨٦.

(١٠) مصري، «ماقبل التاريخ،» ص٨٥.

(١١) بار، «التقرير المبدئي،» ص ٤٣.

(١٢) ماك آدامز، «الاستكشاف الأثري،» ص٣٩.

إلى الألف الرابع وبداية الألف الثالث قبل الميلاد.[١٣] أما الفخار الذي عثر عليه في مواقع الدوائر الحجرية، وبالأخص في الموقع ٢٠١-٥٦، فإنه يمثل أقدم ماتم العثور عليه في وادي السرحان، علماً أن بلاد الشام عرفت صناعة الفخار منذ الألف السابع قبل الميلاد. وهذا ربما يجعلنا نتساءل عن مدى اتصال سكان وادي السرحان ببلاد الشام خلال هذه المراحل المبكرة والدور الذي لعبه وادي السرحان في عملية الاتصال. تشير الأدلة الأثرية التي بين أيدينا إلى أنه كان هناك نوع من الاتصالات، وهذا تأكد من خلال تشابه الأدوات الحجرية في مواقع وادي السرحان ونظيراتها في بلاد الشام.[١٤] لكن لماذا لم تستمر هذه الاتصالات ولم تؤثر في نمط الاستيطان خلال هذه الفترة (الألف الرابع-الثالث ق. م.) التي شهدت تطوراً كبيراً في نمط الاستيطان في بلاد الشام؟ ربما كان السبب يعود إلى محدودية هذه الاتصالات نظراً لأن الأحوال المعيشية والمناخية في شمال الجزيرة العربية كانت مناسبة لحد ما ولم تستدع الاحتكاك والتنقل المتتابع مع سكان بلاد الشام كما أشار إلى ذلك المصري.[١٥] فترة الألف الثاني قبل الميلاد غير واضحة في وادي السرحان، حيث إن الأعمال الأثرية التي تمت لم تقدّم أية أدلة استيطان على طول الوادي، وبالتالي فإنه من الصعب في الوقت الراهن أن نناقش هذه الفترة في غياب أعمال حفر موسّعة في المواقع المهمة في جنوب الوادي وشماله. وقد شهدت بداية الألف الأول قبل الميلاد تجمعات للقبائل العربية في هذا الوادي، هذه التجمعات التي بدأت تهدد الحدود الجنوبية للإمبراطورية الآشورية كما تشير إلى ذلك النصوص الآشورية،[١٦] والتي برزت فجأة على مسرح التاريخ، والتي كانت دومة الجندل مركزاً سياسيا لها لم تأت من فراغ. إذاً لابد أن يكون هناك مستوطنات قائمة في شمال الجزيرة إضافة إلى دومة الجندل تعود إلى فترات تسبق بداية الألف الأول قبل الميلاد، لكن هذه المرحلة- وكما أشرنا أعلاه- لم تتأكد بعد حتى في دومة الجندل، حيث لم يعثر على أية أدلة أثرية تعود للألف الثاني قبل الميلاد.[١٧]

---

(١٣) بار «التقرير المبدئي،» ص٤٤.

(١٤) بار، «التقرير المبدئي،» ص٤٤.

(١٥) مصري، «ماقبل التاريخ،» ص٨٥.

(١٦) D. D. Luckenbill, *Ancient Records of Assyria and Babylonia*(Chicago: N.P., 1927), I, nos. 772, 778; 2, nos.18, 358, 817, 819; Al-Muaikel, pp. 11-19, 80-89.

(١٧) ماك آدامز، «الاستكشاف الأثري،» ص ص ٢١-٤٠.

الألف الأول قبل الميلاد

تمثل فترة الألف الأول قبل الميلاد واحدة من أهم الفترات في تاريخ وادي السرحان، إذ شهدت بداية النشاط الفعلي لتجارة جنوب الجزيرة العربية وازدهار طرق القوافل التي لعبت دوراً مهماً في تنشيط الحركة الاقتصادية في المدن والمستوطنات على طول امتداد هذه الطرق. كما برزت خلال هذه الفترة القبائل العربية الشمالية على مسرح التاريخ كتكوينات سياسية هددت حدود دولة آشور كما تشير إلى ذلك السجلات الآشورية. وقد أشارت هذه السجلات إلى حملات قام بها كل من الملوك الآشوريين، تغلت بليسر الثالث (٧٤٥-٧٢٧ق.م.)، وسارجون الثاني (٧٢٤-٧٠٥ق.م.)، وسنحاريب (٧٠٥-٦٩١ ق.م.)، وآسرحدون (٦٨٠-٦٦٩ ق.م.)، وآشور بانيبال (٦٦٨-٦٢٦ ق.م.) ضد القبائل العربية في شمال الجزيرة العربية وضد دومة الجندل مركز هذه القبائل.[١٨] كذلك قام جيش الملك آسرحدون بحملة ضد بازو Bāzu وخازو Khazū، والذي يرى قروهمان أنها تقع في شمال وادي السرحان.[١٩] هذه المناوشات بين القبائل العربية والجيش الآشوري، والتي استمرت لأكثر من قرن من الزمان،[٢٠] تشير بوضوح إلى تنظيمات سياسية ومراكز حضارية كانت قائمة على طول وادي السرحان خلال النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد. حيث كانت دومة الجندل المركز السياسي والديني لهذه التجمعات، وربما كان نفوذها يشمل كامل شمال الجزيرة العربية، وبالتالي فهي تمثل بداية ظهور الممالك العربية حيث تعاقب على حكمها خلال هذه الفترة مجموعة من الملكات والملوك كما توضح ذلك النصوص الآشورية.[٢١]

بدأت تتضح الأدلة الأثرية التي تتزامن مع فترة الحملات الآشورية أكثر مع تقدم الأعمال الأثرية في وادي السرحان، وقد عثر في الجزء الجنوبي من وادي السرحان على كسر محدودة من الفخار المدهون، والمنسوب للفترة المدينية، وجد في دومة الجندل من مجس حفر داخل حي الدرع، أقدم أحياء دومة الجندل، أرّخ هذا الفخار لمنتصف الألف

---

(١٨) Luckenbill, 1, nos. 772, 778; 2, nos. 18, 358, 817, 819, 824, 828, 946, 1083, 1084; Al-Muaikel, pp. 11-19.

(١٩) Grohman, p. 450.

(٢٠) كان هدف الحملات الآشورية ضد قبائل شمال الجزيرة العربية اقتصاديا أكثر من كونه سياسيا، حيث إن الملوك الآشوريين كانوا يهدفون من ذلك إلى تأمين طرق قوافل التجارة التي كانت تمر عبر دومة الجندل ووادي السرحان باتجاه وادي الرافدين، هذه التجارة كان يتهددها نفوذ القبائل العربية في هذه المنطقة.

(٢١) Luckenbill, 1, nos. 772, 778; 2, nos. 18, 358, 818; Al-Muaikel, pp. 11 - 19.

الأول قبل الميلاد (القرن السادس ـ الخامس ق . م .) (الشكل رقم١) .[٢٢] ويمثل هذا أول دليل على الاستيطان في دومة الجندل خلال الألف الأول ق . م . وسوف تكشف الحفريات المستقبلية في المنطقة الواقعة حول قلعة مارد عن مواد ربما توضح مراحل الاستيطان المختلفة خلال الألف الأول قبل الميلاد . أما في شمال وادي السرحان، فقد اتضح أن هذه الفترة أكثر وضوحاً من جنوب الوادي، حيث تم الكشف عن مواقع تعود لهذه الفترة عثر فيها على فخار يعود لهذه الفترة في موقع الرسلانية (٢٠٠ ـ ٥)، على الحافة الشمالية لحدائق إثرة جنبا إلى جنب مع فخار يعود إلى الفترات المتأخرة (البيزنطية ـ الأموية)، وكذلك في موقع عقلية المشعان (٢٠٠ ـ ١٣) على السفح الشمالي لجبل الصعيدي بكاف .[٢٣] (خارطة رقم ١) .

وموقع عقلية المشعان (شكل رقم ٢) عبارة عن بقايا مستوطنة تعود لمنتصف الألف

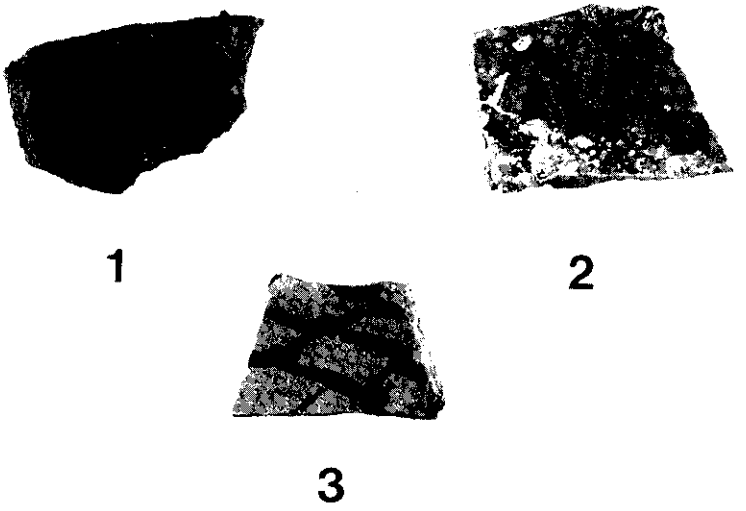

شكل رقم ١ . فخار مرسوم يعود لمنتصف الألف الأول ق. م. من دومة الجندل وسكاكا.

(٢٢) Al-Muaikel, pp. 85, 86, 216, 217, pl. XXVIII, A.

(٢٣) ماك آدامز، «الاستكشاف الأثري،» ص٤١ .

الأول قبل الميلاد إضافة لوجود فخار يعود إلى فترات متأخرة (الفترة الواقعة بين القرنين الأول والسادس الميلادي).[٢٤] وخلال زيارة قام بها المؤلف إلى القريات في شهر ذي الحجة ١٤١٤هـ لاحظ بقايا الموقع الأثري في عقيلة المشعان، والذي يتكون من بقايا جزء من مبنى ذي أسوار سميكة وتصطف على جهتيه الداخلية الجنوبية والشرقية بقايا لغرف، لكن الموقع خرب بسبب استخدام البلدوزر لجرف الرمال التي تغطي المبنى بسبب وقوع المبنى داخل إحدى المزارع الخاصة، حيث ذكر صاحب المزرعة أن الموقع لم يكن ظاهراً على سطح الأرض وأثناء تسوية المزرعة هُدم جزء كبير من هذا المبنى.[٢٥] كذلك لوحظت إلى الشرق من إثرة[٢٦] بقايا مستوطنة تعود لمنتصف الألف الأول قبل الميلاد بالقرب من

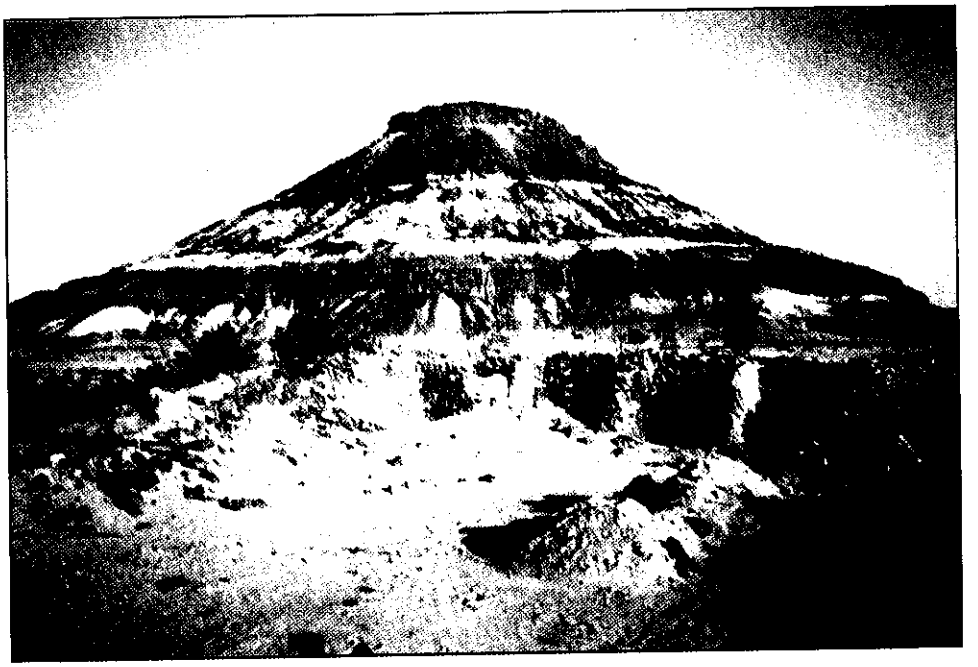

شكل رقم ٢. موقع عقيلة المشعان بالقرب من كاف.

(٢٤) إدارة الآثار والمتاحف، *مقدمة عن آثار المملكة العربية السعودية* (الرياض: إدارة الآثار والمتاحف، ١٩٧٥م)؛ انظر النص الإنجليزي في الكتاب: p. 97.

(٢٥) مازالت أكوام كبيرة من مخلفات عملية الهدم باقية وملاصقة للموقع من الشرق، وقد لاحظت كميات من الفخار فوق هذه الأكوام والتي يؤرخ معظمها إلى الفترة المتأخرة المشار إليها في متن البحث.

(٢٦) إدارة الآثار والمتاحف، *مقدمة عن آثار*، p. 97

المعبد النبطي برأس العانية، الذي أشار إليه وينيت.[٢٧] وفي داخل قصر الصعيدي تم العثور على بعض الكسر الفخارية التي تعود لفترة منتصف الألف الأول قبل الميلاد،[٢٨] وهذا ربما يشير إلى أن القصر يتزامن مع مستوطنة عقيلة المشعان الواقعة إلى الشمال مباشرة من قصر الصعيدي.

غير أن أهم الاكتشافات التي تعود لفترة الألف الأول قبل الميلاد، هي تلك المقابر التي تم الكشف عنها في موسم المسح الأثري الأول (١٣٩٦هـ) بالقرب من كاف، هذه المقابر تعود للعصر الحديدي. ويحيط بكاف عدد كبير من هذه المقابر الركامية، وقد قام فريق المسح الأثري بكشف إحدى هذه المقابر، والتي تطل على موقع عقيلة المشعان، وعثر فيها على كسر لأناء من الفخار وبجواره آنية صغيرة عبارة عن أمفورة مزخرفة بخطوط مرسومة، هذه الكسر الفخارية أُرخّت إلى القرن السابع قبل الميلاد.[٢٩]

أضافت الأدلة الأثرية التي تم الكشف عنها في وادي السرحان بعداً جديداً للتسلسل التاريخي لشمال الجزيرة العربية، حيث استطعنا لأول مرة أن نربط الأدلة الكتابية والمتمثلة بالسجلات الآشورية، والتي ذكرت العرب لأول مرة في القرن التاسع قبل الميلاد، بالأدلة الأثرية التي تؤكد مراحل الاستيطان المختلفة في وادي السرحان خلال الألف الأول قبل الميلاد. لكن تظل مع ذلك معلوماتنا محدودة عن طبيعة هذا الاستيطان وأهم المستوطنات التي كانت مزدهرة في تلك المرحلة، وتظل الحفريات الأثرية الموسعة في المواقع المهمة في جنوب الوادي وشماله هي السبيل الوحيد لمعرفة التفاصيل الدقيقة عن هذه المرحلة من مراحل الاستيطان.

الفترة الواقعة بين منتصف الألف الأول والقرن الثاني قبل الميلاد غير واضحة حيث لم يعثر على أية أدلة أثرية تمثلها، والتي شهدت نهاية الدولة البابلية التي سيطرت على شمال الجزيرة في نهاية القرن السادس قبل الميلاد واتخذ ملكها نبونيد من تيماء عاصمة لملكه لمدة عشر سنوات (٥٥٥ـ ٥٣٩ق. م.)، سيطر خلالها البابليون على وادي السرحان والمستوطنات المهمة في جنوبه وشماله.[٣٠] بعد سقوط الدولة البابلية استطاع الفرس بسط سيطرتهم على أجزاء كبيرة من وادي الرافدين وبلاد الشام، لذا من المؤكد أن شمال الجزيرة خضعت خلال هذه الفترة لنفوذ دولة فارس.

---

(٢٧) Winnett and Reed, 59, 60.

(٢٨) إدارة الآثار، *مقدمة عن آثار*، p. 97.

(٢٩) ماك آدامز، «الاستكشاف الأثري،» ص٤١.

(٣٠) Al-Muaikel, pp. 19 - 21.

الفترة النبطية

تمثل الفترة النبطية (من القرن الثاني ق . م . إلى القرن الثاني الميلادي) مرحلة مهمة من تاريخ شمال الجزيرة العربية بشكل عام ووادي السرحان بشكل خاص . استطاع الأنباط خلال هذه الفترة بسط نفوذهم على جزء كبير من جنوب بلاد الشام وشمال الجزيرة العربية ، وبذلك تمكنوا من السيطرة على طرق التجارة القادمة من جنوب الجزيرة العربية حتى أصبحت البتراء مركز هذه التجارة وحلقة الوصل بين مراكز الإنتاج والاستهلاك ، وتعود سيطرة الأنباط على شمال الجزيرة إلى القرن الأول قبل الميلاد ، حيث تشير الأدلة الأثرية إلى هذه الفترة . وقد أثبتت الأعمال الأثرية في وادي السرحان كثافة الاستيطان النبطي في واحاته الجنوبية والشمالية .

وقبل أن نستعرض هذه المكتشفات لابد أن نعرض لنقطة مهمة تتمثل بأهمية وادي السرحان بالنسبة للأنباط . يعود استخدام وادي السرحان كممعبر للهجرات البشرية وكطريق للقوافل التجارية إلى عصور تسبق الفترة النبطية ، حيث يرى جلوك أن الوادي كان مستخدماً لحركة التنقل مبكراً ، ربما منذ عصور ماقبل التاريخ .(٣١) وخلال الألف الأول قبل الميلاد ازدهر الوادي كطريق للقوافل التجارية القادمة من شرق الجزيرة العربية إلى بلاد الشام ، وتلك القادمة من جنوب الجزيرة العربية باتجاه جنوب وادي الرافدين(٣٢) (خارطة رقم ٢) . إن الأهمية التجارية لوادي السرحان واعتباره حلقة الوصل بين شرق الجزيرة وجنوب وادي الرافدين مع بلاد الشام كانت الدافع الرئيسي الذي لفت أنظار الملوك الأنباط لمدى أهميته .(٣٣) ويحتمل أن يكون ذلك محصلة لأن البتراء أصبحت مركزاً للقوافل التجارية ، فكان من الأهمية بمكان السيطرة على هذا المعبر المهم وبسط نفوذ الأنباط على طول هذا الوادي حتى دومة الجندل جنوباً ، وقد ثبت هذا من خلال النقوش النبطية التي تم اكتشافها

(٣١) Nelson Glueck, *The Other Side of Jordan* (New Haven, Conn.: American School of Oriental Research, 1940), pp. 48, 49.

(٣٢) William C. Brice, "The Classical Trade Route of Arabia from the Evidence of Ptolemy, Strabo and Pliny" in: Ansary et al., ed., *Studies in the History of Arabia,* Part2, *Pre - Islamic Arabia* (Riyadh, King Saud University, 1984) 2, p. 178; Al-Muaikel, pp. 55, 57-59, maps. 1,5.

(٣٣) Al-Muaikel, pp. 21, 22.

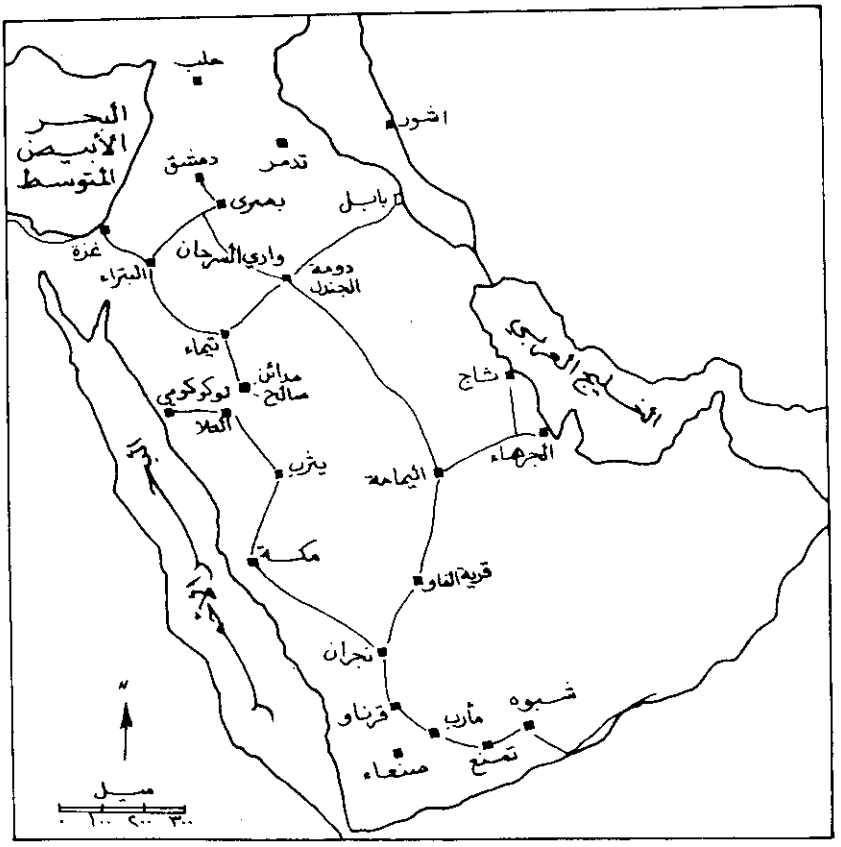

خارطة رقم ٢. أهم طرق القوافل عبر وادي السرحان.

في الجوف والتي تحوي ألقاباً عسكرية،[٣٤] مما يشير إلى أن هذه النقوش كتبت من قبل قوات نبطية كانت تراقب طريق وادي السرحان. إضافة إلى ذلك اكتشف المؤلف في عام ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م موقع حامية نبطية إلى الشمال الغربي من سكاكا (شكل رقم ٣).[٣٥] تشير هذه الأدلة إلى نشاط عسكري على طول وادي السرحان تقوم به قوات نبطية متمركزة في نقاط لمراقبة وحماية قوافل التجارة وليس كما أشار باورسوك بأن القوات النبطية كانت

(٣٤) سليمان بن عبدالرحمن الذييب، «نقوش نبطية من قارة المزاد سكاكا الجوف،» *العصور*، م٧، جـ٢، (١٩٩٢م)، ص ص ٢٢٣ - ٢٢٥، ٢٢٧، ٢٣٣، ٢٣٦، ٢٣٩.

(٣٥) Al-Muaikel, "Qyal, A Nabataean Military Post N. W. Sakaka, Saudi Arabia," *Ages*, 8, part 1 (1993), 5 - 16.

مستقرة في الواحات الرئيسية ،[٣٦] لأن اكتشاف حامية إلى الشمال الغربي من سكاكا ، وعلى مسافة ١٢ كم ، يؤكد أن القوات النبطية كانت تتمركز في نقاط استراتيجية لمراقبة الطرق كما هو الحال في موقع قيال المشار إليه .[٣٧] وفي حالة الضرورة تستطيع هذه القوات التغلغل جنوباً أبعد من دومة الجندل .

تنامت خلال القرن الأول الميلادي أهمية وادي السرحان التجارية من خلال اتجاه قوافل التجار أكثر فأكثر باتجاه بصرى في حوران . أما تركز التجارة خلال هذه الفترة في وادي السرحان ، فجاء محصلة لسيطرة الرومان على تجارة البحر الأحمر واكتشاف سر الرياح الموسمية ، وبذلك اتجهت تجارة جنوب الجزيرة نحو الموانىء على الساحل المصري ومنها إلى البحر الأبيض المتوسط .[٣٨] وبسبب ذلك بدأ يضمحل دور بتراء كمركز لهذه

شكل رقم ٣. موقع قيال شمال غرب سكاكا.

(٣٦) G. W. Bowersock, *Roman Arabia* (London: Harvard University Press, 1983), p. 103.

(٣٧) Al-Muaikel, "Qyal," 5-7.

(٣٨) Bowersock, p. 156.

التجارة شيئاً فشيئاً حتى فقدت أهميتها التجارية وبرزت بصرى كبديل لها، حيث اتجهت تجارة جنوب الجزيرة وشرقها عبر وادي السرحان إليها. وأصبحت بصرى خلال هذه المرحلة مركزاً تجارياً مهماً وإحدى أهم المدن النبطية.[٣٩] وبذلك أصبح من الضروري جداً ربط العاصمة النبطية البتراء ببصرى ولم يكن ذلك متيسراً إلا من خلال وادي السرحان حيث استخدم الأنباط هذا الطريق لتلافي المدن العشرة Decapolis، وبذلك تمكنوا من ربط الجزء الأوسط والجزء الشمالي من مملكتهم (خارطة رقم ٢).[٤٠] تعود الأدلة الأثرية التي سوف نناقشها فيما يلي لهذه المرحلة المتأخرة من تاريخ الأنباط، مع وجود بعض الأدلة التي تعود للقرن الأول ق. م.، وهي الفترة التي أصبح وادي السرحان خلالها الممر الرئيسي لقوافل التجارة النبطية المتجهة نحو بصرى. لذلك فإن الحضور النبطي على طول وادي السرحان خلال هذه المرحلة لابد أن يكون مكثفاً ويذهب إلى أكثر من حماية القوافل، بل إلى استقرار نبطي في معظم تلك الواحات المهمة على طول هذا الوادي وهو ماتؤكده المكتشفات الأثرية.

في جنوب وادي السرحان (الجزء الجنوبي من منطقة الجوف) اتضحت الفترة النبطية أكثر من أي وقت مضى وذلك بفضل الأعمال الأثرية التي كشفت عن جوانب مهمة من تاريخ هذه المرحلة. تمثلت الاكتشافات في المرحلة المبكرة بمجموعة من الكتابات النبطية التي نشرها سفينالك وستاركي،[٤١] ثم وينيت.[٤٢] وقد كشفت أعمال المسح الأثري التي تمت في عامي ١٣٩٥هـ و ١٣٩٦هـ عن فخار نبطي بالقرب من قلعة مارد، وذلك من خلال المجسات التي تم حفرها (شكل رقم ٤)، كذلك لوحظ فخار مشابه لهذا حول سور دومة الجندل وفي سكاكا.[٤٣] أثناء أعمال حفر محدودة قام بها المؤلف داخل قلعة مارد وبالقرب من مئذنة مسجد عمر تم الكشف في الطبقات الدنيا عن فخار نبطي من النوع الرقيق وقواعد وأجزاء أبدان لأكواب صغيرة من الفخار الرقيق والتي تعود إلى الفترة

(٣٩) Parker, p. 116; Glueck, pp. 48, 49.

(٤٠) Parker, p. 116.

(٤١) R. P. Savignac and J. Starcky, "Une inscription nabateene provenant du Djof," *Revue Biblique*, 64 (1957), pp. 196-217.

(٤٢) Winnett and Reed, pp. 142-48.

(٤٣) ماك آدامز «الاستكشاف الأثري،» ص٤٤.

شكل رقم ٤. منظر عام لقلعة مارد بدومة الجندل.

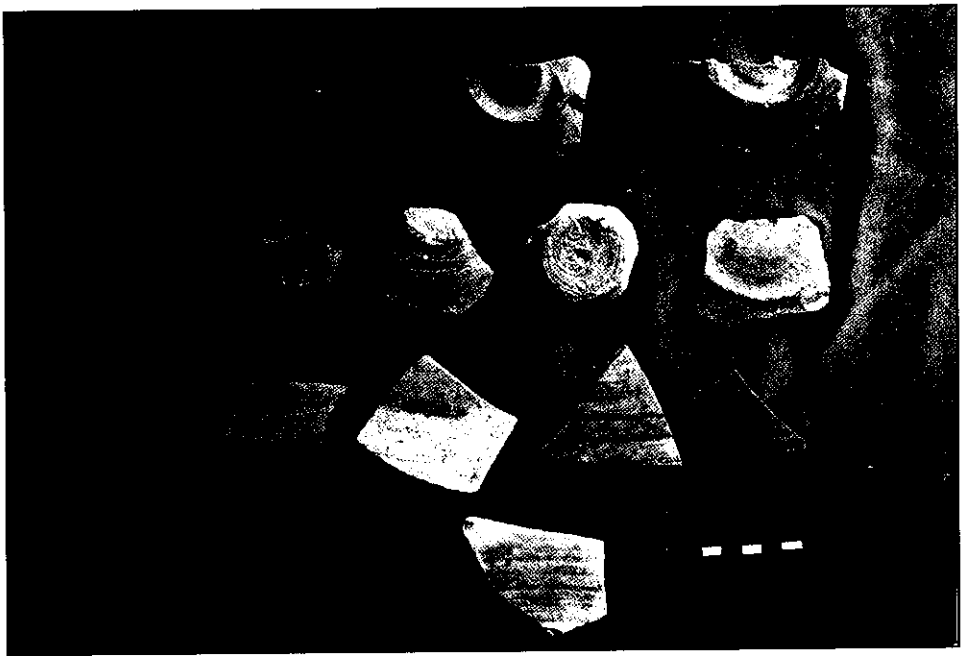

شكل رقم ٥. فخار نبطي عثر عليه في المجس الذي حفر بالقرب من مئذنة مسجد عمر.

النبطية.[٤٤] لكن مع ذلك لم يعثر في دومة الجندل حتى الآن على الفخار النبطي الرقيق والمزخرف بالألوان (شكل رقم ٥).

وجد في موقع قيال شمال غرب سكاكا فوق سطح الموقع كسر من الفخار النبطي المدهونeggshell والذي يؤرخ إلى القرن الأول الميلادي[٤٥] (شكل رقم ٦). كما كشفت الحفريات التي قامت بها دائرة الآثار والمتاحف في عامي ١٤٠٥ و١٤٠٧هـ عن مجموعة من المقابر في موقع الصنيميات، وعثر في هذه المقابر الجماعية على فخار ومسكوكات وحلي نبطية.[٤٦] لكن التقارير التي نشرت عن هذه الحفريات أرخت هذه المقابر إلى الفترة

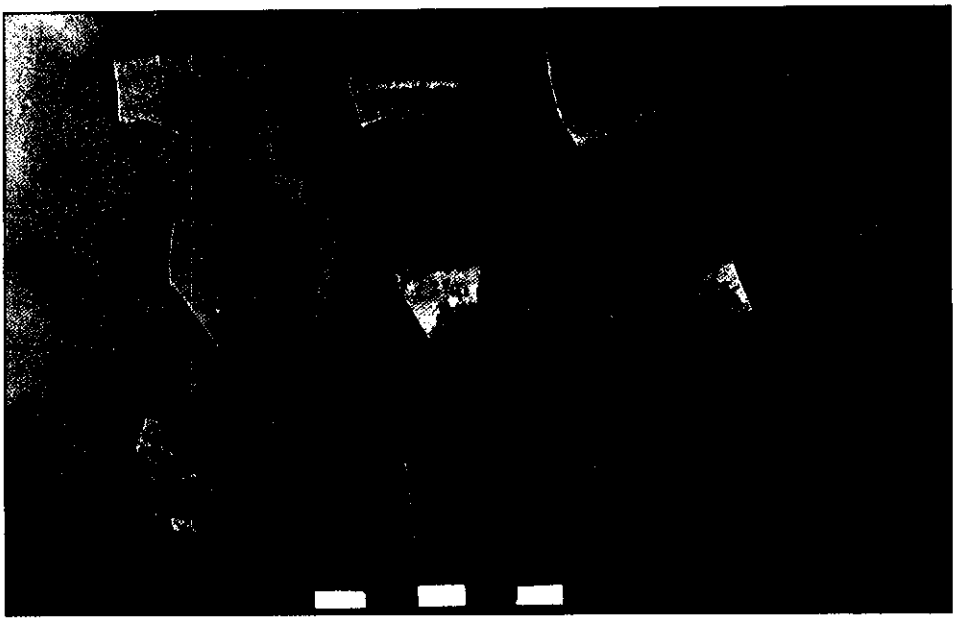

شكل رقم ٦. فخار نبطي من موقع قيال.

(٤٤) Al-Muaikel, *Archaeology of Jawf*, pp. 81 - 84, 87-90, 216-217.

(٤٥) Al-Muaikel, "Qyal," 8-9.

(٤٦) خالد عبدالعزيز الدايل «التقرير الحقلي عن حفريات دومة الجندل في موسم ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م،» *أطلال*، ع١٠ (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م)، ص ص ٧٩ - ٩٧؛ خالد عبدالعزيز الدايل، «تقرير عن أعمال ونتائج الموسم الثاني لحفرية دومة الجندل ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م،» *أطلال*، ع١١ (١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م)، ص ص ٤٥ - ٥٥.

الهلنستية،[٤٧] مع أن هناك مقارنات ليس فقط للمواد المكتشفة في هذه المقابر بل لطريقة الدفن وتصميم هذه المقابر في صحراء النقب بفلسطين،[٤٨] وإلى الغرب من دومة الجندل تم الكشف عن جزء من سور دومة الجندل، لكن التقارير التي نشرت لم تحدد الفترة التي يعود إليها هذا السور، وذلك عن طريق دراسة الطبقات الأثرية. وعلى الرغم من ذلك، ومن خلال الملتقطات السطحية حول السور، يتضح أن هذه التحصينات ربما تعود لمرحلة الازدهار المهمة التي مرت بها دومة الجندل خلال الفترة النبطية المتأخرة[٤٩] (شكل رقم ٧). كما تم الكشف، إضافة لهذه الأدلة، عن مجموعة جديدة من الكتابات النبطية والتي قام بنشرها سليمان الذييب،[٥٠] هذه النقوش ذات صيغ عسكرية وتؤكد مرة أخرى الأهمية الاستراتيجية لوادي السرحان كطريق رئيسي للقوافل التجارية.

ولا يقل الجزء الشمالي من وادي السرحان أهمية عن جزئه الجنوبي، حيث كشفت الأعمال الأثرية عن أدلة استيطان نبطي في المواقع المختلفة. ففي قرية كاف، عثر وينيت على أدلة استيطان نبطي داخل قصر الصعيدي (شكل رقم ٨)، حيث أشار إلى أساسات مبنى مستطيل الشكل داخل ساحة القصر، مساحة هذا المبنى ١١×٦م. وقد أرجع وينيت هذا المبنى إلى الفترة النبطية بناءً على الفخار الذي وجد حول هذا المبنى، وخلص إلى أن المبنى كان عبارة عن معبد نبطي استناداً إلى تخطيطه واتجاهه نحو الشرق، وتشير هذه الأدلة إلى استخدام القصر خلال الفترة النبطية.[٥١] كما وجد في قرية إثرة، وعلى مسافة ليست بعيدة عن كاف، أدلة استيطان نبطي أكثر وضوحاً. وأهم تلك الآثار الشاخصة ذلك القصر المسمى بقصر المذهن (شكل رقم ٩)[٥٢] في وسط القرية، والقصر مشيد بأحجار البازلت المنحوتة

(٤٧) إن الفترة الهلنستية ليس لها وجود واضح في منطقة الجوف، حيث لم تكتشف مواد أثرية يمكن نسبتها باطمئنان إلى هذه الفترة، ومع أن فخار موقع لقطة (الطوير) نسب تجاوزاً لهذه الفترة، لكن معظم مقارنات هذا الفخار وجدت في مواقع داخل الجزيرة العربية مثل مواقع ثاج، وعين جاوان، وزبيدة والفاو. لذا فإن المواد المكتشفة في هذه المقابر تعود إلى الفترة النبطية وهي الفترة الأكثر وضوحا في منطقة الجوف.

(٤٨) Avraham Negev, *Nabataean Archaeology Today* (New York: New York University Press, 1986), pp. 77-79.

(٤٩) الدايل، «موسم ١٤٠٦هـ،» ص ص ٥١، ٥٢.

(٥٠) الذييب، «نقوش نبطية،» ص ص ٢١٧-٢٥٤.

(٥١) Winnett and Reed, pp. 62, 180 - 182. إدارة الآثار، *مقدمة عن آثار*، ص ص ٩٦، ٩٧.

(٥٢) الاسم الذي يطلق على القصر في الوقت الحاضر حديث ومنسوب لمالكي القصر الحاليين (عائلة المذهن). لذلك ليس هناك بعد تاريخي لهذا الاسم.

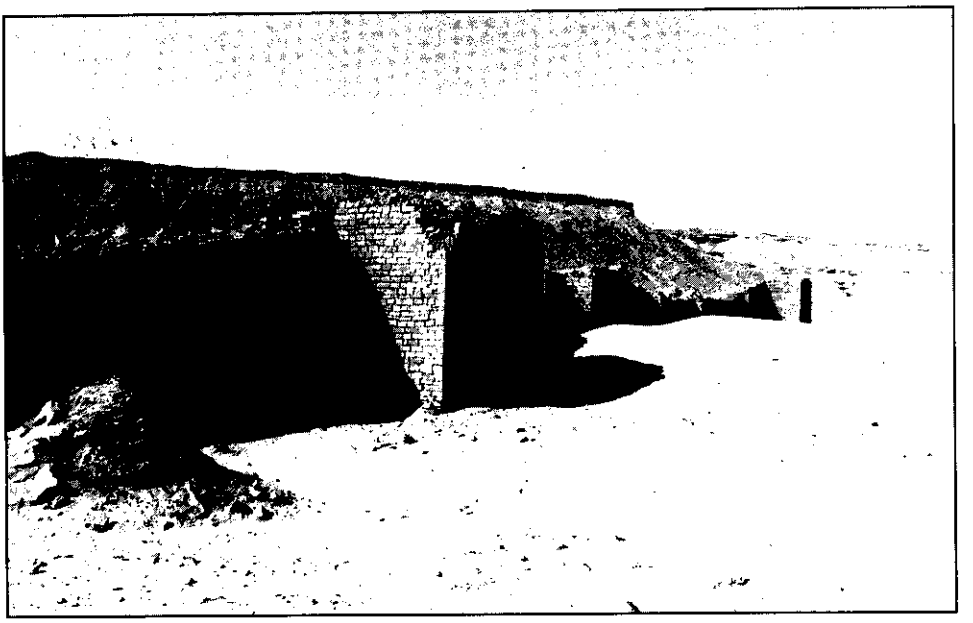

شكل رقم ٧. منظر لسور دومة الجندل الذي كشف عنه عام ١٤٠٦هـ.

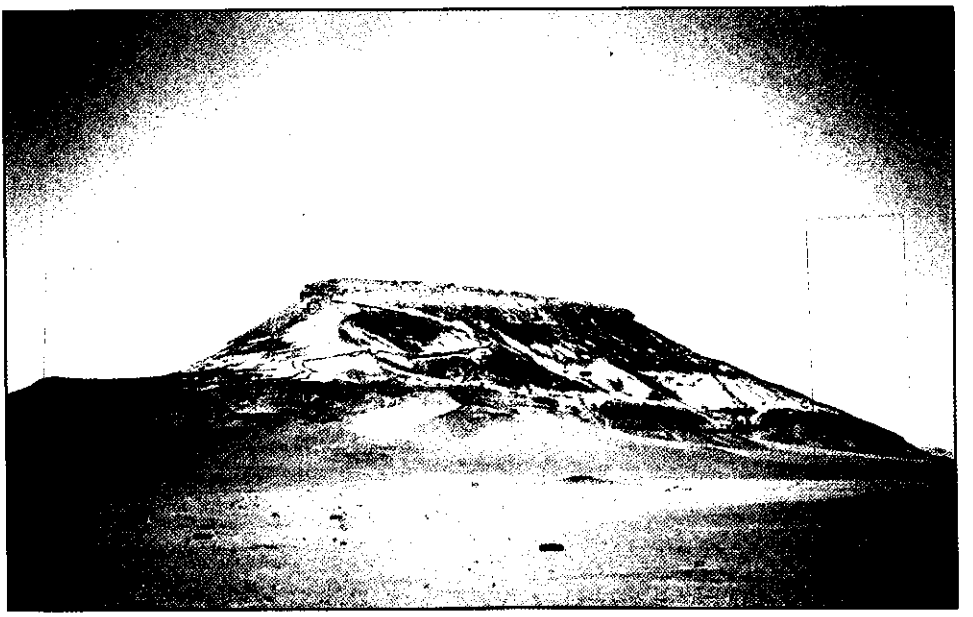

شكل رقم ٨. قصر الصعيدي المطل على بلدة كاف.

نحتاً متقناً.[٥٣] والمبنى مكتمل من الخارج حتى ارتفاع الطابق العلوي؛ أما من الداخل، فإن الأجزاء العلوية معظمها مهدم، لكن التفاصيل الداخلية واضحة المعالم. يوجد فوق المدخل الشمالي للمبنى نقش كوفي يعود لمرحلة استخدام القصر خلال العصر الإسلامي المبكر، وتوجد إلى الشرق من القصر أساسات حجرية سميكة تظهر على سطح الأرض إضافة إلى منشآت مائية مثل الآبار وبقايا القنوات المائية. تشير دراسة الخصائص المعمارية لهذا القصر إلى العصر النبطي إضافة إلى ملاحظة مجموعة من كسر الفخار النبطي الرقيق حول القصر.

كما سجّل إلى الشرق من إثرة، وعلى مسافة قصيرة منها، أساسات مبنى قديم في موقع يسمى رأس العانية، مساحة هذا المبنى ٢٠×١٨م، وتظهر هذه الأساسات على سطح الأرض. شيد المبنى من أحجار البازلت بعضها مهذب. ومسقط المبنى عبارة عن مستطيل يحيط به سور، وتقع في منتصف هذا المستطيل غرفة مستطيلة الشكل تتوسط المساحة الداخلية. ويحمل مخطط هذا المبنى بعض سمات المعبد النبطي في خربة التنور بالأردن.

شكل رقم ٩. القصر النبطي بإثرة.

(٥٣) Winnett and Reed, p. 59.

لذلك، فإن هذا المبنى ربما يكون معبداً نبطياً.[٥٤] عُثِرَ في هذا الموقع على كسر من الفخار النبطي الرقيق (قشر البيض) والمرسوم إضافة إلى بعض أجزاء من مسارج نبطية.[٥٥] وفي عام ١٣٩٥هـ قام فريق المسح الأثري التابع لإدارة الآثار والمتاحف بزيارة للمنطقة، لكنه لم يستطع تحديد هذا المبنى وأشاروا إلى أن هذا المبنى مدفون في الوقت الحاضر تحت مبان حديثة العهد.[٥٦] كما لاحظ فريق المسح الأثري في عدد من المواقع الأخرى في محافظة القريات فخاراً يتزامن مع فترة القرن الأول-الثاني الميلادي.[٥٧] واعتمادا على الأدلة التاريخية والأثرية التي أشرنا لبعضها فإنه من المؤكد أن محافظة القريات كانت مستوطنة خلال العصر النبطي، حيث تأكد ذلك في كل من إثرة وكاف، وربما كذلك في القرى الأخرى المحيطة مثل قراقر ومنوة. وقد لوحظ في الحديثة بقايا لأنظمة ري تتمثل بقنوات محفورة تحت سطح الأرض تمتد لمسافات طويلة إضافة لبقايا مستوطنة ومقبرة.[٥٨] ولم تحدد هوية هذه المخلفات الأثرية بعد، لكن وجود أنظمة ري مشابهة لهذه في موقع إثرة ربما يجعلنا نربط هذه المخلفات بفترة الازدهار النبطي في المنطقة والتي ربما كانت الحديثة خلالها محطة متقدمة على طريق وادي السرحان.

تعود غالبية الأدلة الأثرية النبطية المكتشفة في شمال وادي السرحان إلى القرن الأول الميلادي، وهي الفترة التي شهدت ازدهاره كمعبر رئيسي لقوافل التجارة النبطية القادمة من جنوب الجزيرة العربية وشرقها باتجاه بصرى، أهم المدن والمراكز التجارية النبطية خلال هذا القرن. لذلك فإن ازدهار الاستيطان النبطي في وادي السرحان خلال القرن الأول الميلادي ربما كان محصلة للتغيرات التي حدثت على طرق قوافل التجارة وتركزها خلال هذه المرحلة عبر وادي السرحان. وهذا لابد أنه دفع الملوك الأنباط للاهتمام بالمستوطنات المنتشرة على طول هذا الوادي عن طريق تمركز قوات في نقاط مختلفة من الوادي بهدف تأمين حرية حركة قوافل التجارة، وهذا كان من أهم العوامل التي ساعدت على ازدهار المراكز الاستيطانية المختلفة خلال المرحلة المتأخرة من تاريخ الأنباط.

---

(٥٤) Ibid., pp., 59,60.

(٥٥) Ibid, p. 60.

(٥٦) ماك آدامز، «الاستكشاف الأثري،» ص ص ٤٢.

(٥٧) ماك آدامز، «الاستكشاف الأثري،» ص ٤٢.

(٥٨) Winnett and Reed, pp. 180-82.؛ إدارةالآثار، *مقدمة عن آثار*، ص٩٦؛ سليم صالح الحريص، *القريات من الألف إلى الياء، دليل تاريخي إعلامي- تجاري* (القريات: الغرفة التجارية الصناعية بالقريات، د. ت.)، ص ص ٣٨، ٤٥.

فترة القرن الثاني ـ القرن السابع الميلادي

تمثل هذه الفترة مرحلة مهمة من مراحل تاريخ وادي السرحان، حيث بدأت هذه المرحلة بسقوط البتراء عاصمة الدولة النبطية على يد الرومان في سنة ١٠٦م، وأدى ذلك إلى ضم معظم الأراضي النبطية الواقعة في بلاد الشام إلى سلطة بصرى عاصمة المقاطعة العربية الرومانية. ولم يمتد نفوذ السلطة الرومانية المباشر ليشمل وادي السرحان بأكمله، بل اقتصرت سيطرتهم المباشرة على الأجزاء الشمالية من الوادي حول منطقة الأزرق في الأردن، حيث اهتم الرومان بتحصين النهاية الشمالية لوادي السرحان من خلال سلسلة من الحصون شُيّدت في كل من الأزرق والأسيخن والعويند. وقد استخدم الرومان هذه الحصون لمراقبة النهاية الشمالية لوادي السرحان والسيطرة على حركة القبائل العربية عبر هذا الوادي باتجاه سوريا، حيث كانت القبائل العربية تحاول اقتحام جنوب سوريا ومنطقة حوران.[٥٩]

يذكر جراف أن هناك إشارات إلى أن قبائل شمال الجزيرة العربية كانت تهاجم الحدود الشرقية للمقاطعة العربية الرومانية خلال نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث الميلاديين،[٦٠] هذه القبائل لابد أنها كانت تتحرك عبر وادي السرحان، أقصر الطرق المؤدية من وسط الجزيرة العربية وشمالها إلى سوريا. لذلك، فإنه من غير المحتمل ألا يولي الرومان اهتماماً بوادي السرحان الذي كان من أهم قنوات الاتصال التي تربط الجزيرة العربية ببلاد الشام. ويرى توماس باركر أن السيطرة الرومانية على وادي السرحان كانت مهمة جدا لحماية الأجزاء الجنوبية من المقاطعة العربية الرومانية.[٦١] ولم يؤد قضاء الرومان على الدولة النبطية إلى إهمال وادي السرحان، بل كانت فرق من الفيلق الثالث ترابط، ليس فقط بالأزرق، بل كذلك في المواقع القريبة منها مثل الأسيخن والعويند، وهذا يدل دلالة أكيدة على اهتمام الرومان بالحركة على طول وادي السرحان.[٦٢] ولم تقف مهمة الفيلق الثالث عند النهاية الشمالية لوادي السرحان، بل امتدت إلى النهاية الجنوبية للوادي. ففي عام ١٣٩٢هـ عثر في دومة الجندل على نقش لاتيني يشير إلى حضور أجزاء من الفيلق

---

(٥٩) Parker, pp. 130, 131.

(٦٠) D. F. Graf, "The Saracens and the Defence of the Arabian Frontier," *Bulletin of the American School of Oriental Research,* 229 (1978), p. 12.

(٦١) Parker, p. 15.

(٦٢) Bowersock, p. 98.

الثالث إلى دومة الجندل.[٦٣] ويعود تاريخ هذا النقش إلى فترة حكم الإمبراطورين سبتموس سايروس وكاركلا بين عامي ١٩٧ و ٢١١ للميلاد. ويؤكد وجود هذا النقش في دومة الجندل بشكل قاطع اهتمام الرومان بوادي السرحان وبتأمين حرية الحركة عبر هذا الوادي، ويقترح سبيدل أن حقيقة وجود فرقة حربية، مقرها بصرى، في دومة الجندل تعني أن البلدة إماكانت تابعة للمقاطعة العربية الرومانية أو كانت تحت سلطة حاكم تابع للنفوذ الروماني وتحت مراقبته.[٦٤] كذلك عثر في الأزرق على نقش لاتيني يذكر طريقاً رومانيا إلى دومة الجندل (طريق دومة Dumata paraetensio)، ويشير هذا النقش إلى قيام مجموعة فرق من خمسة فيالق من الجيش الروماني بإنشاء طريق دوماتا (دومة الجندل). يتجه هذا الطريق من بصرى إلى بسيانس Basianis مسافة ٦٦ ميلاً، ومن بسيانس إلى آمات Amat مسافة ٧٠ ميلا، ومن آمات إلى دوماتا Dumata مسافة ٢٠٨ أميال.[٦٥] ويقترح سبيدل أن بسيانس هو الاسم القديم لقصر الأزرق وأن آمات ماهي إلا النبك أبو نخلة في وادي السرحان.[٦٦] ولأنه ليس هناك موقع في وادي السرحان باسم النبك أبو نخلة ربما كان سبيدل يقصد النبك أبو قصر، إحدى القرى المعروفة في منتصف وادي السرحان. ما طبيعة هذا الطريق وما الغرض الذي أنشيء من أجله؟ إن الأعمال الأثرية التي تمت في وادي السرحان لم تسجل أي منشآت رومانية، وربما كان هذا عبارة عن طريق ترابي تسلكه قوافل الإبل، وأن العمل الذي قام به الرومان تجاه هذه الطريق القديم لم يتعد إقامة سلسلة من نقاط المراقبة بين بصرى ودومة الجندل، تركزت في الواحات المنتشرة على طول هذا الوادي، وبالتالي لسنا أمام منشآت حربية أقامها الرومان في نقاط محددة من الوادي. ويرى سبيدل أن هذه الفيالق ربما كانت تعمل بهذا الطريق ونقاط المراقبة على طوله، وفي الوقت نفسه ربما قامت بإعادة بناء واحد أو أكثر من الحصون في منطقة الأزرق.[٦٧] والسؤال الذي يمكن أن يطرح نفسه هنا هو هل أنشيء طريق دومة الجندل لحماية التجارة وحدود

---

(٦٣) Ibid, pp. 98, 158. حمد الجاسر، في *شمال غرب الجزيرة* (الرياض: دار اليمامة، ١٣٩٠هـ)، ص١٣٧.

(٦٤) Speidel, "The Roman Road to Dumata (Jawf in Saudi Arabia) and the Frontier Strategy of Praetensione Colligare," *Historia*, 36 (1987) Heft 2 - 2 Quartal, p. 214.

(٦٥) Ibid., p. 216.

(٦٦) Ibid., p. 218.

(٦٧) Ibid., pp. 216, 217.

المقاطعة العربية الرومانية في وقت السلم أم كان جزءا من حرب ديوكلاتين الشرقية؟ يعتقد سبيدل أن طريق دومة الجندل كان إجراء حربيا؛ وفي هذه الحالة، فإن هدف هذا الطريق كان إنذار الفيلق في بصرى عن أي هجوم محتمل من قبل العرب أو الفرس. أما في وقت السلم، فإن مراقبة طريق القوافل من بصرى حتى دومة الجندل سوف يقوي سيطرة الرومان على تجارة الخليج العربي التي أصبحت الآن، وبعد سقوط تدمر ومن قبلها بتراء، تتبع أكثر من أي وقت مضى طريق دومة الجندل عبر وادي السرحان.[٦٨]

تؤكد النقوش اللاتينية المكتشفة في كل من الأزرق ودومة الجندل الاهتمام الكبير الذي أولاه الرومان لوادي السرحان نظراً للأهمية التجارية والعسكرية له، وهذا مادفع الرومان لإرسال وحدات من الجيش الروماني في مهمات عسكرية إلى وادي السرحان. لكن ذلك كان فقط لتأمين الحدود الجنوبية للمقاطعة إضافة لحماية قوافل التجارة القادمة من الخليج العربي في طريقها إلى بصرى. ولم تؤكد الأعمال الأثرية التي تمت في وادي السرحان وجوداً رومانياً مستمراً في الوادي، ومع ذلك تم اكتشاف بعض أنماط الفخار في مواقع متفرقة من الوادي يمكن نسبته للفترة الرومانية والبيزنطية.[٦٩]

خضع شمال الجزيرة العربية ووادي السرحان منذ بداية القرن الرابع الميلادي للنفوذ غير المباشر للإمبراطورية البيزنطية عن طريق ولاء الملوك والأمراء العرب للإمبراطور البيزنطي. وكان من أهم العوامل التي ساعدت على ذلك نشوء دولة الغساسنة في جنوب بلاد الشام وتحالفها مع مختلف القبائل العربية في شمال الجزيرة العربية. لذلك هيأت الإمبراطورية البيزنطية جميع الظروف التي ساعدت على استمرار الغساسنة في أداء دورهم، والمتمثل في حماية الحدود الجنوبية للإمبراطورية البيزنطية من هجمات القبائل العربية في شمال الجزيرة العربية. وقد كشفت الأعمال الأثرية التي تمت في وادي السرحان عن فخار بيزنطي في عدد من المواقع الأثرية، مثل دومة الجندل وكاف وإثرة.[٧٠] وتعكس هذه المواد المكتشفة علاقات كانت قائمة بين هذه المستوطنات وبلاد الشام خلال هذه المرحلة. لذلك يجب ألا نحمل هذه المواد أكثر مما تحتمل لأنها لا تمثل فترة استيطان بيزنطي في وادي السرحان بقدر ماتمثل منتجات انتقلت إلى هذه الحواضر من خلال علاقات تجارية كانت قائمة.

---

(٦٨) Ibid., p. 220.

(٦٩) ماك آدامز، «الاستكشاف الأثري،» ص ص ٤١، ٤٢.

(٧٠) ماك آدامز، «الاستكشاف الأثري،» ص ٤١.

برزت دولة كندة كسلطة سياسية قوية في وسط الجزيرة العربية خلال النصف الأول من القرن الخامس الميلادي،[٧١] واستطاعت السيطرة على أجزاء كبيرة من وسط الجزيرة العربية وشمالها، وامتد نفوذها حتى حدود الإمبراطوريتين البيزنطية والساسانية. وهذا ماحدا بالبيزنطيين إلى إرسال خمسة مبعوثين دبلوماسيين إلى العرب، حيث أرسلت أولى هذه البعثات خلال حكم الإمبراطور البيزنطي أنستاسيس Anastasius في عام ٥٠٢م. وقد وجهت هذه البعثة إلى الملك الكندي الحارث بن عمرو وأثمرت عن عقد اتفاقية أنهت فترة العداء بين الدولة البيزنطية وكندة.[٧٢] وتدل العلاقات البيزنطية الكندية دلالة واضحة على نفوذ ملوك كندة، القوي الذي امتد حتى حدود الدولتين البيزنطية والساسانية. وهذا يؤكد أن وادي السرحان خلال هذه المرحلة كان واقعاً تحت نفوذ كندة لأن الوادي كان المعبر الرئيسي الذي يربط وسط الجزيرة العربية ـ منطقة نفوذ كندة ـ ببلاد الشام.

واستناداً إلى ماسبق، فإن وادي السرحان خضع خلال القرون الثلاثة السابقة على الإسلام لنفوذ سلطات مختلفة متباينة تبعا لمد السياسة وجزرها، لكنه لم يكن خارجاً عن سلطتين، سلطة الغساسنة وسلطة كندة، أيهما أقوى كان يتحكم بهذا الوادي والواحات المنتشرة على طوله.

---

(٧١) جونار اولندر، *ملوك كندة من بني أكل المرار*، ترجمة عبدالجبار المكلبي (بغداد: دار الحرية، ١٩٧٣م)، ص ٧٠.

(٧٢) Irfan Shahid, "Byzantium and Kinda," in *Byzantium and the Semitic Orient before the Rise of Islam* (London, Variorum Reprints, 1988), pp. 57,58.

Wadi al-Sirhan in the Pre-Islamic Period in the Light of Archeological Discoveries

Khaleel Ibrahim Al-Muaikel
Associate Professor, Department of Archeology and Museology, College of Arts, King Saud University, Riyadh, Saudi Arabia

Abstract. This study deals with an important geographical area which was the natural route connecting inner Arabia with southern Syria. In pre-Islamic times Wadi al-Sirhan was the preferred caravan road to the Levant. Therefore, the Wadi and its settlements flourished in the pre-Islamic period, and the archaeological materials which have been discovered in recent times enable us to propose a chronological history of the Wadi during its different periods.